﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٦﴾ [العنكبوت: 16]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيانُ عظيمِ مكانة النّبيّين في الدّعوة وعِظَمِ القدرة الإلهيّة في الإنجاء من الماء والنار

لَمّا قصَّ ربُّ العِزَّة علينا قصّة نوحٍ ﷺ والطّوفان الّذي عاقب به الظّالمين من قومه الّذين لبث فيهم ألفَ سنةٍ إلا خمسين عامًا يدعوهم وهم به كافرون، وكيف أنَّ إنجاء الله له وللمؤمنين من الطّوفان كان حَدَثًا عظيمًا وموعظة كبيرة؛ ثنّى سبحانه بذكر قِصّةٍ عظيمةٍ يبيّن فيها عبرة وموعظة أخرى، هي قصّة إبراهيمَ ﷺ وكيف أن الله تعالى أنجاه من النار، وجعلها بردًا وسلامًا عليه، فقال: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ﴾ أي ولقد أرسلنا إبراهيم[1]، بما يدلُّ على عظيم صبرِ النّبيّين الكريمين، وعظيم مكانهما في الدعوة إلى الله، وعظمِ القدرة الإلهيّة؛ الّتي أنجتْ من الغرق في الماء ومن الاحتراق في النار[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يَنبوعُ الخَيرِ وأصْلُه هو إخلاصُ العَبدِ لِرَبِّه عِبادةً واستِعانةً

المعنى الإجماليّ في البيان الإلهيّ في هذه الآية: اذكرْ يا محمد لقومك قصّةَ إبراهيم حين كَمَلَ عقلُه، وأصبح قادرًا على النّظر والاستدلال، وترقَّى من مرتبةِ الكمال في نفسه إلى مرتبةِ إرشادِ الخَلْقِ، وتصدّى للدّعوةِ إلى طريقِ الحقّ، فدعا قومه إلى عبادةِ الله وحده لا شريكَ له، وإلى الإخلاصِ له في السِرّ والعلن، واتّقاءِ سَخَطِه بأداءِ فرائضه، واجتنابِ معاصيه، ثم بيّنَ لهم فائدة ذلك فقال: فذلك الّذي آمركم به خيرٌ لكم ممّا أنتم عليه إنْ كان لديكم

(1) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 406.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 224.

ذرّةٌ من الإدراكِ والعلم، تُمَيِّزون بها الخيرَ من الشّرّ، وتعلمون ما ينفعكم في مستأنَفِ حياتكم الدّنيويّة والأُخرويّة[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

عِلّة اقتران قصّتي نوح وإبراهيم عليهما السلام:

تشابهُ قصّتي نوح وإبراهيم عليهما السلام في الأحداث والمآل

قرَنَ البيانُ القرآنيُّ بين قصّة إبراهيم وقصّة نوحٍ عليهما السلام؛ لأنّ جُزْءًا من قصّة إبراهيم هنا يتناسقُ مع قصّة نوحٍ قبلَها؛ من حيث الدعوةُ إلى التّوحيد وطولُ زمانها، وسوءُ مقابلةِ قومه له، ورفضُهم دعوتَه، وظلمُهم له ولأنفسهم، ثم إنجاؤُه تعالى له من كيدهم، ومن عقابِ الله لهم، ولكنّه في قصّة إبراهيم أطنبَ في تصويرِ عقيدةِ التّوحيد والاستدلال لها، وإبطالِ عبادة الأصنام؛ لأنَّ إبراهيم عليه السلام يُعَدُّ جدَّ العرب، ولهذا فإنّ الاتّعاظ بقصّته وبما حلّ بقومه آكَدُ[2].

الغرض من التّعبير بالجملة الخبرية:

الإخبارُ بقصّة إبراهيم وعظٌ وتذكيرٌ لقريش، وتسليةٌ للنّبيّ ﷺ

قوله تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ جملة خبريّة على تقدير فعلٍ (أرسلنا) قبلَها، وفائدةُ الخبر: إفادةُ المخاطَب الحكمَ الّذي تضمّنَتْه الآية، وغرضُه الوعظُ والتّذكيرُ بهذه القصّة الّتي هي تمثيلٌ لقريش، وتذكيرٌ لحال أبيهم إبراهيم من رفضِ الأصنام، والدّعوى إلى عبادةِ الله وحده، حيث كان نُمْرودُ وأهلُ مدينته عُبّادَ أصنام[3]، وإيرادُها ليس إلّا إرادةً للتّنفيسِ عن رسولِ اللهِ ﷺ وأنْ تكونَ مَسْلاةً له، وسبيلَ تفريجٍ عليه بأنَّ أباهُ إبراهيمَ خَليلَ الرّحمن كان قد مُنيَ بنَحْوِ ما مُنيَ به؛ مِن شِركِ قومِه، وعِبادتِهم الأوثانَ[4].

معنى الواو ودلالتها في قوله ﴿وَإِبْرَاهِيمَ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ

(1) المَراغيّ، تفسير المَراغيّ: 20/ 125.
(2) عبد السّلام أحمد الرّاغب، وظيفة الصّورة الفنّيّة في القرآن، ص: 273.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 347.
(4) الزَّمَخْشَرِيّ، الكشّاف: 3/ 448.

تسلية النّبيّ ﷺ ودعـــوة قومه للاتّعاظ

عليه قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [العنكبوت: 14]، وهو عطْفُ مفردٍ على مفرد؛ أي عَطَفَ إبراهيمَ على نوحٍ، والتقدير: وأرسلنا إبراهيم إلى قومه[1]، ويمكن أنْ يكون المعطوفُ عليه الضَّميرَ في ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾، والتّقدير: فأنجينا نوحًا وإبراهيم[2]، ونكتةُ هذا العطف بيانُ استمرارِ الصراعِ بين الحقِّ والباطلِ؛ تطمينًا وتخفيفًا وتسليةً عن النّبيّ ﷺ؛ بأنّه ليس بِدْعًا من الرّسل، وأنّ الحقَّ منتصرٌ.

وتحتملُ أنْ تكون الواو استئنافيّة، وما بعدها كلامٌ مستأنَفٌ لِسَوقِ قصّةٍ ثانية بعد قصّةِ نوح والطّوفان، ومِنْ ثَمَّ يكون لفظ (إبراهيم) منصوبًا بفعل أمرٍ محذوفٍ تقديره: اُذْكُرْ، ويكون ﴿إِذْ﴾ الظرفُ بدلَ اشتمالٍ من إبراهيم[3]، والمعنى: واذكرْ إبراهيم أباكَ الأعظم لتتأسّى به وتتسلّى عمّا تعانيه، وليتّعظ قومُك بقصّته[4].

وفائدةُ حذفِ عامل النّصب على القولين تنبيهُ المخاطب على الاهتمام باستحضارِ المعنى العظيم في إرسالِ الرسل، أو تذكّر حالِ إبراهيم في الذهن بشكلٍ دائم.

سِرّ إيثار ورود ذكر إبراهيم عليه السلام:

البيانُ بأنّ القدرةَ الّتي أنجتْ من الماءِ والنّارِ تنجيكَ أنت أيضًا يا رسول الله

ذكرَ القرآنُ إبراهيمَ عليه السلام في سياقِ سورةٍ من خصائصها الحديثُ عن الابتلاءِ في سبيلِ الدّعوة إلى الله، والصبرِ على هذا الابتلاء؛ لأنّه كان من النّماذجِ العظيمة في ذلك، وليُنبّه ربُّنا سبحانه إلى عظيمِ قدرته الّتي كما أنجتْ نوحًا عليه السلام من الغرقِ العظيم أنجتْ إبراهيمَ من النّار العظيمة، فالقدرةُ الّتي أنجتْ من الماءِ والنّار تُنجيكَ يا رسول لله فاصبرْ واثْبتْ[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 224.
(2) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 310.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 413 - 414.
(4) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 406.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 224.

سِرّ التّعبير بالظّرف ﴿إِذْ﴾:

بيانُ سُرْعةِ تبليغ إبراهيمَ للرّسالة ومبادرتِه للامْتثال

﴿إِذْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ ظرفٌ للوقت الماضي من الزمان، وتُخَلِّصُ المضارعَ لمعنى المُضيّ، وهي متعلّقة بـ(أرسلنا) المقدّر، والتّقدير في الآية: وأرسلنا إبراهيمَ في وقتٍ ماضٍ قالَ فيه لقومه كذا وكذا، فأفادَ أنّ زمنَ القول كان وقتَ الإرسال، فربطَ اللّهُ جلّ ثناؤه بين الإرسال وقولِ إبراهيم لقومه؛ لبيانِ سُرْعَة تطبيقِ إبراهيم للرّسالة ومبادرته للامتثال[1]، أي: (أرسله فقال لقومه)، كأنّ العمليّتين وقعتا في زمن واحدٍ، وكأنّ الرّسالة جاءتْ ساعةَ التّبليغ فلا فاصلَ بينهما.

دلالة التّعبير بالفعل ﴿قَالَ﴾ ماضيًا:

محاورةٌ حدثتْ في الزمنِ الماضي يُقصَدُ منها الاعتبارُ في المستقبل

جاء فعل قول إبراهيم ﷺ لقومه ماضيًا في قوله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾؛ للدّلالة على أنّ هذا الفعل قد وقعَ من إبراهيم وتحقّقَ في الزّمن الماضي؛ بدلالة ﴿إِذْ﴾ الّتي هي ظرفٌ للزّمن الماضي، ولأنّ صيغةَ الفعلِ الماضي تُناسبُ السّياقَ الّذي هو ذِكرٌ لقصص أنبياءٍ سبقوا النّبيّ ﷺ وأوّلها قصّة نوحٍ الّتي عُطفتْ عليها قصّةُ إبراهيم ﷺ وقد جاءت الأفعال فيها بصيغةِ الفعل الماضي ﴿أَرْسَلْنَا﴾ [العنكبوت: 14] و﴿فَلَبِثَ﴾ [العنكبوت: 14] و﴿فَأَخَذَهُمُ﴾ [العنكبوت: 14] و﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ و﴿وَجَعَلْنَٰهَآ﴾.

معنى اللاّم ودلالتُها في ﴿لِقَوْمِهِ﴾:

بلّغَ إبراهيمُ قومه بالدّعوة إلى عبادةِ الله وحده وتقواه وخصّهم بها

اللّامُ في: ﴿لِقَوْمِهِ﴾ هي لامُ التّبليغ بلاغةً ومعنًى، ولامُ الجرّ إعرابًا، فهي الجارّةُ لاسمِ السّامع لقولٍ أو ما في معناه[2]، ويتمُّ بها تعديةُ فعلِ القولِ إلى المخاطَبِ بالقول، أي: بَلَّغَ إبراهيمُ ﷺ قومَه بالرّسالة، وفيها معنى اختصاصِ التّبليغ لهم؛ فقد خَصَّهم بالدّعوة إلى عبادةِ اللّه وتقواه؛ لأنّهم كانوا أهلَ كفرٍ أو شركٍ.

(1) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 406.
(2) السّيوطيّ، الإتقان: 2/ 266.

سِرّ التّعبير بلفظ القوم وإضافته:

تلطّفُ إبراهيم بقومه حتى يستمعوا لنصحه ويستجيبوا لدعوته

اختارَ النّظمُ الحكيمُ لفظ (القوم) في قوله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ دون غيرها من الألفاظ كالرّهط أو العشيرة أو الملّة؛ لِما في لفظ (قوم) من المناسبة للمقام؛ فلم يكن خطابُ إبراهيم لقرابته الأدنين من الرّجالِ الّذين لا يتجاوزُ عددهم عشرة حتى يعبّر بـ(رهطه)، ولم يكونوا موافقين له في الطريقة حتى يعبّر بـ(ملته)، بل كانوا وثنيين، ولم يكونوا كذلك أقاربه من بني أبيه الّذين يخالطهم ويجمعهم معه أمرٌ واحد حتى يعبّر بـ(عشيرته)، وإنّما كان خطابه لعامّةِ قومه الأقارب والأباعد من الرجال الّذين هم مسؤولون عمّن تحت قَوامتهم[1]، وهم كثيرو العددِ كما يشيرُ استعمال القرآن للفظ القوم، بما يقطعُ بمعنى الكثرة فيهم، ولِما في لفظ (قوم) من التَّلَطُّفِ والتّودّد؛ لأنّ قومَ الرّجلِ لا بُدَّ أن ينْصُروه ويؤيّدوه، ويَقْبَلوا ما جاء بِهِ، ولأنّ صفةَ القوامةِ محبوبةٌ لدى الرّجال، وتدلّ على الشّدّةِ والقوّة.

وأمّا إضافةُ لفظ القوم إلى إبراهيم عليه السلام ﴿لِقَوْمِهِ﴾؛ فطلبًا للتّأثيرِ في نفوسهم؛ لأنّ معنى الإضافة في الآية الانتسابُ إليه، وهي تَلطُّفٌ بهم؛ حتى يلينوا له ويستمعوا لنصحه، ويستجيبوا لدعوته، ولا يتّهموه، فهُمْ قومُه وهو منهم[2]، والمرءُ لا يغشُّ أهله، كما أنّ الإضافة تشيرُ إلى اهتمامِ إبراهيم بقومه وخوفِه عليهم وحرصِه على إنقاذهم من الشّرك والإفكِ الّذي يودي بهم إلى الجحيم.

الحضّ والحثّ على وجوب الاستجابة السريعة لما تضمنه هذا الفعل

الغرضُ من التّعبير بفعل الأمر:

الأمرُ بالعبادةِ في قوله تعالى: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ دليلٌ على أنَّ شأنَ العبادةِ هو مرتكزُ التّوحيد ودليلٌ عليه؛ إذ إنّ المشركين كانوا يشركون

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قوم)، والزَّبيديّ، تاج العروس: (قوم).
(2) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 406.

باللهِ غيره في العبادة، فأمَرَهم بإخلاصِ العبادة للّه وحده، وغرضُ هذا الأمرِ هو الحضُّ والحثُّ؛ أي: حضّهم على عبادةِ اللّه وحده لا شريكَ له، والإخلاصِ له في السرّ والعلن[1]، وفائدتُه أنّ العبادةَ الّتي لا تكون خالصةً للّه، أي مقرونةً بالإشراك ليست عبادةً في الحقيقة.

سِرّ إيثار التّعبير بلفظ العبادة:

العبادةُ طاعةٌ مع خضوعٍ وتذلّلٍ ولا يستحقّها إلا مَن له غايةُ الإفضالِ سبحانه

آثرَ البيانُ الإلهيُّ التّعبير بلفظ العبادة في قوله تعالى: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ﴾ دون غيرها من الألفاظ كالطّاعةِ مثلًا؛ لكون لفظِ العبادة أبلغَ وأنسبَ للسّياق والمقام، إذِ العبادةُ هي الطاعةُ مع الخضوعِ، وهي غايةُ التذلّل ولا يستحقها إلا مَن له غايةُ الإفضال سبحانه[2]، فالأمرُ بعبادةِ اللّه هو أمرٌ بطاعته والخضوع له وتوحيده، وهذه المعاني للعبادة تتناسبُ مع السّياق والمقام، فإبراهيمُ ﷺ يدعو قومه إلى إفراد اللّه سبحانه بالعبادةِ وطاعته والخضوع له، فهو وحده المستحقّ للعبادة، وكذلك في التّعبير بلفظ العبادة تعريضٌ بقومِ إبراهيم ﷺ إذ كانوا يعبدون أصنامًا لا تستحقّ العبادة.

سِرّ تخصيص لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ بالذِّكر:

اللهُ الجامعُ لكلّ صفاتِ الكمالِ يبعثُ اسمه في النّفس المهابةَ

عبّر البيانُ القرآنيُّ بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ﴾؛ لتربيةِ المهابة والتّعظيم والحبّ في قلوبِ قومِ إبراهيم تجاهَ اللّه سبحانه بذكر الاسم الّذي يجمعُ كلّ صفاتِ الكمالِ والقدرة والعظمة، بما يدفعهم للإيمان والتّقوى، أي: "﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أي الملكَ الأعظم بما يأمركم به من طاعته ﴿وَٱتَّقُوهُۖ﴾ أي خافوه في أنْ تشركوا به شيئًا"[3].

بلاغةُ عطف الأمر (اتقوا) على (اعبدوا):

في قولِه تعالى: ﴿وَٱتَّقُوهُۖ﴾ عطْفٌ للأمرِ بالتّقوى على الأمرِ

(1) المَراغيّ، تفسير المَراغيّ: 20/ 124.
(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (عبد).
(3) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 406.

بالعبادة، والجامعُ هو أنّ العبادةَ والتّقوى أصلُ الدّين، وأنّ كلا الفعلين أمرٌ من إبراهيمَ ﷺ لقومه، إلا أنّ أحدَهما بالعبادةِ وتوحيدِ اللّه عن الشّركاء وامتثالِ ما أمرَ اللّه به من تكاليف، والآخرَ بالتّقوى؛ أي: الخوف والحذر والتّحرّز من غضب اللّه بتوحيده، وبتركِ ما يُغضبه من المعاصي وتزكيةِ النّفس؛ لتُحرزوا رتبةَ الكمال في ذلك، فلا يَمَسُّكم عذابٌ، أي: اعبدوا اللّه واتّقوه في حقِّ الاعتقاد، واعبدوا اللّه واتّقوه في حقّ المعاملة[1].

التّوحيدُ والتّقوى أصلُ الدين

الغرض من تقديم الأمر بالعبادة على التّقوى:

في تقديم الأمر بعبادة اللّه على الأمر بالتّقوى في قوله تعالى: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ﴾، مراعاةٌ للأهمّ والأسبق، فالعبادةُ الّتي تتضمّن توحيدَ اللّه والإخلاصَ له في العبادة دون سواه تسبقُ التّقوى الّتي هي الامتثالُ للأوامرِ واجتنابُ النّواهي، فعبادةُ اللّهِ وتوحيدُه أهمّ؛ إذ لا ينفعُ الإنسانَ تقواه إذا لم يكن موحّدًا عابدًا للّه ومخلصًا له، كما أنّ طاعةَ اللّه وعبادته وسيلةٌ لتحقيق التّقوى والتّقرّب منه سبحانه.

لا تنفعُ الإنسان تقواه إذا لم تسبقها العبادةُ بإخلاص التّوحيد

علاقة جملة ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ بما قبلها:

بيّن النّظم الإلهيُّ علاقة جملةِ ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ بما قبلها بأنّها تعليلٌ للعبارة السّابقة ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ﴾؛ وقد فصل بينهما من غير رابطٍ لفظيٍّ اكتفاءً بالرّابط المعنويّ الّذي جعل بينهما اتّصالًا شبه كاملٍ؛ إذ جاء قوله: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ تَعليلًا واضحًا للأمْرِ بعبادةِ اللّه وتقواه، أي: اعبدوا اللّه واتّقوه؛ لأنّه خيرٌ لكم[2].

تعليلٌ للأمرِ بالعبادة والتّقوى

الغرض من التّعبير باسم الإشارة البعيد:

عبّر البيان القرآنيُّ باسم الإشارة البعيد ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾؛ لإفادة التّنبيهِ على

تعظيمٌ وتفخيمٌ لِما أمرَ به إبراهيمُ قومَه من عبادةِ الله وتقواه

(1) الماتُريديّ، تأويلات أهل السنّة: 8/ 215.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 224.

عِظَم ما أمرهم به سيّدُنا إبراهيمُ ﷺ من عبادةِ اللّه وتقواه، وعلى تفخيم شأنه، أي: "ذلكم الأمر العظيم الّذي هو إخلاصكم في عبادتكم له وتقواكم"[1].

نكتة العدول عن المفرد إلى الجمع:

التّنبيه على عظمة ما أمرَ به إبراهيمُ قومَه من عبادةٍ وتقوى

عدلَ البيان الإلهيّ من اسم الإشارة المفرد (ذلك) إلى اسم الإشارة الجمع ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ تنبيهًا على عظمة ما أمرَ به إبراهيمُ قومَه من عبادةٍ وتقوى وإشارةً إليها جميعِها؛ لِما تضمَّنَتْه مِنْ تكليفٍ بالعبادة، مع الإخلاص في التّوحيد، ومِنْ أمرٍ بالتّقوى مع الوعظِ والإرشاد، فجاءت الإشارة إلى هذا الجمع باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ تعظيمًا وتفخيمًا لهذه التكاليف والإرشادات في تحقيق السعادة لهم، كما أنّ في خطاب الجمع ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ مناسبةً لخطابِ قومه وهم جمعٌ.

دلالة التّعبير بلفظ ﴿خَيْرٌ﴾:

كلُّ خيرٍ يوجدُ في الدنيا والآخرة فإنّه من آثارِ عبادةِ اللّه وتقواه

﴿خَيْرٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من أفعال التّفضيل، والمعنى: عبادةُ اللّه وتقواه خيرٌ لكم من تركِ ذلك، أو من كلّ شيء[2]، أو ممّا أنتُم عليه، ومعنى التفضيلِ - مع أنَّه لا خيريةَ في تركِ عبادة اللّه، وتركِ تقواه قطعًا بأيّ وجهٍ من الوجوه - باعتبارِ زعمِهم الباطلِ[3]، أو من باب إطلاقِ (أفعل التّفضيل الّذي ليس على باب التّفضيل)، أي: بما ليس في الطرفِ الآخر منه شيء، وإنّما كانت عبادةُ اللّه وتقواه خيرًا عامًّا للناس؛ لأنّه لا سبيلَ إلى نيلِ كرامةِ العبد في الدنيا والآخرة إلا بذلك، وكلُّ خيرٍ يوجدُ في الدنيا والآخرة فإنّه من آثارِ عبادةِ اللّه وتقواه[4].

(1) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 406.
(2) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 406.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 34.
(4) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 628.

الغرض من تنكير لفظ ﴿خَيْرٌ﴾:

إفادة التّعظيم والعموم لكل أنواع الخير في العبادة والتّقوى

نكّر البيانُ القرآني لفظ ﴿خَيْرٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ لإفادةِ الإبهام الّذي أفاد التّعميم والتّعظيم لهذا الخير من غير تحديد متعلَّقه، فهو خيرٌ عظيمٌ فخمٌ يعمّ حالهم في دينهم ودنياهم، وفي حياتهم وآخرتهم، أي خيرٌ لهم في كلّ شيء[1]، وهو خير لا يقادَرُ قدرُه؛ وفي هذا حثٌّ وترغيبٌ لقومِ إبراهيم ﷺ على عبادةِ الله وتقواه.

سِرّ التّقييد بالجارّ والمجرور ﴿لَّكُمْ﴾:

ترغيبٌ من إبراهيم لقومه بأنّه خيرٌ خاصٌّ بهم ويستحقّونه إذا عبدوا الله واتّقوه

أتى البيانُ القرآنيُّ بالجارِّ والمجرور ﴿لَّكُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ لإفادة الاستحقاق والاختصاص لهم من خلال معنى اللّام الّتي أفادتْ ذلك، أي: ذلكم خيرٌ خاصٌّ بكم وتستحقّونه إذا عبدتم الله واتّقيتموه، وفي هذا حثٌّ لهم على الاستجابة وترغيبٌ لهم.

معنى ﴿إِن﴾ ودلالتُها في ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾:

العلمُ بالخيريّة دافعٌ للعبادة والتّقوى

﴿إِن﴾ في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ شرطيّةٌ، و﴿كُنتُمْ﴾ فعلٌ ماضٍ في محلّ جزم فعل الشّرط، وجوابُ الشّرط محذوفٌ دلَّ عليه ما قبله، والتّقدير: إنْ كنتم تعلمون خيريّة ذلك فاعبدوا الله واتّقوه[2]، وفي هذا تأكيدٌ للخيريّة؛ لِما يتضمّنه الكلامُ من معنى التّكرير، أو التّقدير: إنْ كنتم تعلمون فاعبدوا الله واتّقوه[3]، أو: إنْ كان فيكم علمٌ بما هو خيرٌ لكم ممّا هو شرٌّ لكم فاعبدوا الله واتّقوه، أو: إنْ نظرتم بعين الدّرايةِ المبصرة دون عينِ الجهل العمياء؛ علمتم أنّه خيرٌ لكم[4]، وفي هذا كلّه استنهاضٌ للنّفوس

(1) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 5/ 544.
(2) الهَرَرِيّ، حدائق الرَّوح والرَّيْحان: 21/ 379.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 414.
(4) الزَّمَخْشَرِيّ، الكشّاف: 3/ 447.

نحو الخير، وحثٌّ على الاستجابةِ للرّسول ﷺ في دعوتهم إلى عبادةِ الله وتقواه.

دلالة التّعبير بالماضي ﴿كُنتُمْ﴾:

مَنْ تحقّقَ علمُه بخيريّة عبادةِ اللهِ وتقواه لا بدّ أنْ يدفعه إلى الاستجابة

عبّر البيان الإلهيُّ بفعل الكون ﴿كُنتُمْ﴾ ماضيًا؛ في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ للدّلالة على تأكُّدِ علمِهم بالخيريّة وتحقُّقِه؛ فإذا تحقّق علمهم بخيريّة عبادةِ اللهِ وتقواه دفعهم ذلك للاستجابة، وأتى بفعلِ الكونِ مجموعًا؛ لأنّ السّياقَ في خطابِ الجماعة، وهو خطابُ إبراهيم عليه السلام لقومه، وهذا يشملُ جميعَ مَن تحقّق علمُه بخيريّة عبادة الله وتقواه.

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿تَعْلَمُونَ﴾:

تجدّدُ العلم بخيريّة العبادة والتّقوى، وهو دافعٌ إلى الاستجابة

جاء التّعبير القرآنيُّ بفعل ﴿تَعْلَمُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ بصيغة المضارع؛ للدّلالة على أنّ الخيريّة مرهونةٌ بتجدّد كونِهم في عدادِ من يتجدّد له العلم بأدلّة اختصاصِ الله بالألوهيّة، أو بما هو خيرٌ لكم ممّا هو شرّ لكم، أو يتجدّد اتّصافهم بأنّهم أهلُ علمٍ ونظر، لأنّ هذا التجدّد للعلمِ يعني الاعتقاد بالخيريّة، ومن ثَمَّ العملِ بما أمرهم به إبراهيمُ من عبادةِ الله وتقواه[1].

الغرض من حذف المفعول:

قرائن الأحوال أو دلالة السّابق تقتضيان الحذف وتغنيان عن الإطالة

حذفَ البيانُ القرآنيُّ مفعولَ الفعل في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ اختصارًا؛ لدلالة ما قبل الشّرط عليه، أو أنه محذوف بقرائنِ الأحوال[2]، والتقدير: إنْ كنتم تعلمون أدلّةَ اختصاص الله بالألوهية، كما أنّ الحذف يتيحُ للذّهن أن يستحضرَ أكثر من معنى، في تقدير المفعول المحذوف بما يدلّ على العموم، فقد ذكر المفسِرّون العديد من التّقديرات لهذا المفعول، ومنها: (إنْ كنتم تعلمون ما هو

(1) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 407.
(2) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 152.

خيرٌ لكم ممّا هو شرٌّ لكم)[1]، أو (إنْ كنتم تعلمون الخيرَ والشّرَّ وتُميّزون أحدَهما من الآخرِ، أو إن كنتم تنظرون إلى الأمور بنظرِ العلمِ دون نظر الجهل)[2]، أو (إنْ كنتُم تعلمونَ شيئًا من الأشياءِ بوجهٍ من الوجوهِ فإنَّ ذلك كافٍ في الحكمِ بخيريّةِ ما ذُكِر لكم من العبادةِ والتَّقوى)[3]، ويمكن أنْ يُنزَّل فعل ﴿تَعْلَمُونَ﴾ منزلةَ الفعلِ اللّازم، أي: إنْ كنتم أهلَ علم ونظر[4]، أو: إنْ نظرتم بعينِ الدّراية المبصرة دون عينِ الجهل العمياء[5]، فلا يَعقِلُ خَيريَّةَ عِبادةِ اللّهِ وَحْدَه وتَقْواهُ إلّا ذو عِلم[6].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 18.
(2) البَيضاوِيّ، أنوار التّنزيل: 4/ 190.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 34.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 224.
(5) الزَّمَخْشَرِيّ، الكشّاف: 3/ 447.
(6) ابن عُثَيْمين، تفسير العنكبوت، ص: 70.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والأربعون،
سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والأربعون، سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 42 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-93-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 42 : المجلد الثاني والأربعون، سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-93-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-2154237 بتاريخ 2024/12/25م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»